



مجلة بحوث نصف سنوية

العدد الثاني • شعبان ١٤٠٦هـ • أبريل ١٩٨٦م

ظاهرة الاستعمار فى افريقيا والعالم العربى

د . حسن سيد سليمان*

مقدمة :

يقصد بلفظ الاستعمار قيام دولة بغرض سيطرتها الكاملة خارج حدودها على شعب دولة أخرى وبدون موافقة ورضا أهلها . وتقوم هذه السيطرة على استغلال الاقليم المستعمر وسكانه مما يفقد هذا الاقليم سيادته الداخلية والخارجية فيصبح اقليماً مستعمراً وليس دولة . وقد ادعت الدول الاستعمارية فى ذلك وجود شرعية للاستعمار تبرر لها حق الغزو على أراضى الغير الضعفاء دون مراعاة لحقوقهم فى الحرية والحياة الكريمة المستقلة .

وبذلك أصبح الاستعمار ، فى واقع الامر نوعاً جديداً للعبودية – أى عبودية الانسان للانسان – التى عرفتها البشرية فى الحضارات القديمة والتى رفضتها بعد ذلك الرسالات السماوية .

وقد اختلفت الاراء والنظريات حول أهداف الاستعمار حيث ركز البعض على الأهداف الاقتصادية أى العمل على استغلال الموارد الطبيعية لصالح المستعمر – ، وركز البعض الآخر على الأهداف الاستراتيجية – أى الاستفادة من الموقع الجغرافى للبلاد المستعمرة فى العمليات العسكرية وغيرها (مثلاً قناة السويس بالنسبة لربط بريطانيا بمستعمراتها فى الهند) .

ولكن هذه الأهداف كانت فى حقيقة الأمر أهدافاً قصيرة المدى بالنسبة للدول الاستعمارية اذ أن الأهداف ذات المدى البعيد كانت وما زالت فى الواقع أهدافاً حضارية أن هذه الدول كانت تسعى دائماً لفرض حضارتها على البلدان المستعمرة فى العالم الثالث[1] .

والملاحظ أن الاستعمار فى شكله التقليدى أو القديم قد اعتمد على الاحتلال العسكرى المباشر لتحقيق أهدافه وكان من أساليبه أيضا ، بجانب استغلال ونهب الثروات الطبيعية للاقاليم المستعمرة ، العمل على تشويه معالم سكان هذه الاقاليم الحضارية – من خلال التبشير الدينى وفرض لغة المستعمر وثقافته – وكذلك تشجيع رعايا الدولة المستعمرة على الهجرة بغرض الاستيطان فى الاقاليم المستعمرة مما يضع أهل هذه الاقاليم الاصليين فى ظروف معيشية تجعلهم فى درجة أقل من

* محاضر فى العلوم السياسية بجامعة الخرطوم .

مكانة المستوطنين الاجانب الذين يحظون برعاية الحكومة الاستعمارية بالحصول على امتيازات معينة ليست من نصيب السكان الاصليين أو المحليين.

أما الاستعمار الحديث، وهو شكل جديد للاستعمار حل محل الاستعمار القديم، فإنه يعنى أيضاً فرض السيطرة الاجنبية بشتى أنواعها، عسكرية، سياسية، اقتصادية، ثقافية، وأيديولوجية – على دولة ما مع الاعتراف باستقلالها وسيادتها (التى تصبح بالتالى سيادة رسمية أو شكلية). ولا يعتمد هذا الاستعمار الجديد بالتالى على أساليب الاستعمار التقليدى المباشر بل يستخدم وسائل جديدة خفية وغير مباشرة للوصول لنفس الأهداف مع تحاشى المعارضة الشعبية الصريحة لهذه الدولة المستقلة أو معارضة الرأى العام العالمى. ومن أهم وسائل هذا الاستعمار الجديد أو الامبريالية الجديدة كما يسمى أيضا، عقد الاتفاقيات الثنائية غير المتكافئة، تكبيل الدولة النامية، والتى فى طور النمو، فى العالم الثالث (أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية) بشروط تحرمها من حرية الحركة والتصرف، استغلال المشاكل الاقتصادية والادارية للدولة الحديثة الاستقلال بهدف التدخل فى شئونها والضغط عليها فى صورة معونات وقروض، اقامة القواعد العسكرية، اثارة الاضطرابات الداخلية والانقسامات الطائفية والحزبية والعنصرية لاضعاف الدولة حديثة الاستقلال وايقاعها بالتالى تحت السيطرة الاجنبية، استخدام المنظمات الدولية التى تقوم فيها الدول الكبرى بدور رئيسى فى الضغط على الدول النامية وتوجيه سياساتها (٢).

ونود فى هذا البحث أن نركز على بروز ظاهرة الاستعمار وتطورها عبر القرون خاصة ما حدث من تطور للاستعمار الاوربى بتحويله من شكله التقليدى الى شكله الحديث مع توضيح ذلك من خلال حالات دراسية أو أمثلة محددة تعبر عن الاساليب الاستعمارية المختلفة فى كل من مرحلتى هذا التطور حتى نصل بذلك فى نهاية الامر الى استنتاجات علمية حول هذا الموضوع.

ولهذا فان نقطة البداية ستكون عن الخلفية التاريخية لظاهرة الاستعمار وتطور هذه الظاهرة عبر الاستعمار الاوربى التقليدى على بلدان العالم الثالث، ومنها البلاد العربية والافريقية. والى مرحلة حصول معظم هذه البلدان على استقلالها السياسى نتيجة لتطور حركات التحرير الوطنية التى قادت الكفاح والنضال بشكل مستمر وبأساليب مختلفة بهدف التحرر والانعتاق من السيطرة الاستعمارية المباشرة. ثم يركز البحث بعد ذلك على دراسة حالات معينة كأمثلة للسياسات الاستعمارية المختلفة التى مارستها دول أوربا الاستعمارية – خاصة بريطانيا وفرنسا – على البلدان المستعمرة. ويلى ذلك بحث ظاهرة الاستعمار الجديد وما ترتب عليه من استمرار للاستعمار القديم فى شكل اساليب جديدة وغير مباشرة تهدف فى النهاية الى اخضاع دول العالم الثالث المستقلة ذات السيادة للتبعية للدول الكبرى التى تسعى لفرض نفوذها على هذه الدول بصورة منظمة كما حدث فى الماضى بهدف تجنب المواجهة والصدام بين هذه الدول الكبرى وبعضها البعض. وهذا يحتم فى نهاية البحث أن نهتم، بجانب الاستنتاجات الرئيسية، بتقديم المقترحات العامة لمواجهة مخاطر ذلك الاستعمار أو الامبريالية الجديدة على دول العالم الثالث، والله الموفق،،

بروز ظاهرة الاستعمار :-

قد يعد الاستعمار قديماً قدم الانسان بسبب الهجرات والغزوات منذ التاريخ القديم للبشرية ، ولكن هذه التحركات لم تكن مقننة أو مخططة حيث أنها لم تتجه تدريجياً وبشكل أوضح نحو الاستعمار الا مع تطور المجتمع والحضارة وزيادة الارتباط البيئى ، عضوياً ومجتمعياً بين الجماعات والاقاليم ، مع زيادة نمو الدولة كشكل سياسى . وقد حدثت صراعات مختلفة فى العالم القديم بين قوى البربر وبين قوى البر والبحر ، وكان البحر المتوسط هو المسرح الرئيسى لمثل هذه الانشطة التعميرية أو الاستعمارية حيث كانت موجات الاستعمار البحرى تقطع البحر فى كل اتجاه مثلاً من فينيقيا الى قرطاجنة ، من أثينا الى آسيا الصغرى وايطاليا ، ومن قرطاجنة الى ايبريا . وتطلعت قوة البحر أولاً الى التوسع الاقليمى فى الاراضى المقابلة أو المجاورة أو المحيطة على اليابس . وبدأ بذلك تأسيس الامبراطوريات البحرية المترامية الشهيرة فى التاريخ (والتى انطلقت من اليونان وروما حيث كونت الامبراطورية الرومانية نموذج الدولة العالمية) والتى كانت بمثابة نمط أولى بدائى لامبراطوريات الاستعمار الاوربى فى عصرنا الحديث (٣) .

أما بالنسبة للدولة العربية الاسلامية التى امتدت فى العصور الوسطى من أراف الصين الى أبواب فرنسا ، والتى يزعم بعض الكتاب الغربيين أنها كانت امبراطورية استعمارية ، فأنها كانت فى حقيقة الامر دولة تحرير بكل معنى الكلمة لانها حررت كل هذه المناطقَ الواسعة من سيطرة الاستعمار الرومانى أو الفارسى المتداعى واضطهاده الوثنى وابتزازه المادى . وبعد قيام هذه الدولة العالمية لم تعرف أية نزعة عنصرية أو حاجزاً لونياً بل كانت وحدة مفتوحة من الاختلاط والتزاوج الحر ، وما عرفت ابداً أية شعوبية أو حاجزاً حضارياً حيث كانت وسطاً حضارياً متجانساً مشاعاً للجميع ، كما لم تخلق نواة مركزية متميزة على سائر المقاطعات والاقاليم لان عاصمتها السياسية انتقلت من المدينة المنورة الى الشام والعراق ثم مصر الفاطمية ، كما كان للمغرب مركزاً آخر للقوة وكذلك الاندلس مما جعل هذه الدولة العربية الاسلامية أوكومونولث فى التاريخ بالمعنى الحديث مع الفارق الهام فى انها لم تمر بالمرحلة الاستعمارية المشينة التى مر بها كومونولث اليوم (٤) .

ويمكن تقسيم الاستعمار الغربى فى العصور الحديثة الى مرحلتين أولها تغطى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وتركز على الاستعمار الاستيطانى لحد بعيد ، وثانيها تحتل القرن التاسع عشر ويسودها طابع الاستعمار الاستقلالى (٥) . كما يرتبط هذا التطور بالكشوف الجغرافية التى صاحبت التوسع التجارى فى المرحلة الاولى فأنه يرتبط بالثورة الصناعية فى المرحلة الثانية . وبدأت الكشوف فى نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر من قبل البرتغال الذى أستانف مع الاسبان الصراع الصليبى ليبدأ بذلك استعماراً كاثوليكيا موجهاً ضد الاسلام والمسلمين . فمنذ غارات القرصنة الاسبانية على المغرب وقبل الاسترداد النهائى لاسبانيا عام ١٤٩٢ .

انتزع الاسبان مدينتى سبته ومليلة على الساحل المقابل ، بينما بدإ البرتقال بعد ذلك بقليل فى إقامة مستعمرة على الساحل الافريقى للمغرب . والواقع أن توسع البرتقال بعد وصول دأجاما للهند عن

طريق رأس الرجاء انما قام على حساب العرب أساساً سواء أكان تجارياً أم استراتيجياً حيث استقرت قوة البرتقال على كل ساحل الهند والمحيط الهندى . وبدأ البرتغاليون يعملوم بعد ذلك على ابعاد النفوذ العربى عن ساحل شرق أفريقيا ، واستولوا فى القرن السادس عشر على جزر البحرين وأقاموا فيها الحصون ، وظلوا بها نحو قرن كامل حتى تمكن العرب من طردهم . وفى العقد الثانى من نفس القرن هاجموا عدن مرتين ولكن بدون جدوى وكذلك فعلوا بمسقط حيث نجحوا فى البقاء نحو نصف قرن(٦) .

وبذلك بدأ الاستعمار الغربى فى العصور الحديثة حيث أسس البرتغال أول امبراطورية استعمارية الا أنها لم تدم طويلاً بسبب المنافسة الاسبانية فى نهاية القرن السادس عشر حيث انتقل اهتمام البرتغال من الشرق الى البرازيل التى جلب لها البرتغاليون الرقيق الافريقى بأعداد ضخمة مما جعلهم مؤسسى مدرسة الرق فى العصر الحديث(٧) . وشملت الامبراطورية الاسبانية بعد ذلك وفى نفس القرن جزر الهند الغربية وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية حتى الارجنتين . ويمكن القول أنه اذا كانت أركان الاستعمار البرتغالى هى التبشير والتجارة والاستعمار الاستراتيجى الساحلى ، فان أركان الاستعمار الاسبانى هى التبشير والمعادن النفيسة والغزو والاستعمار الاستيطانى .

وبهزيمة الارمادا الاسبانية الشهيرة عام ١٥٨٨ من قبل بريطانيا انتهت اسبانيا كقوة بحرية ، وظهرت قوى أوربية جديدة ممثلة فى فرنسا وهولندا وبريطانيا(٨) . وهنا نلاحظ أنه بينما ركزت هولندا على الاستعمار التجارى خلال القرن السابع عشر ، نجد أن فرنسا ومن بعدها بريطانيا قد ركزتا بعد ذلك على الجانب العسكرى لبناء امبراطوريات استعمارية ذات أهداف متعددة فى بلدان العالم الثالث .

ويمكن التمييز خلال القرن التاسع عشر بين ظاهرتين بارزتين أولها التعمير أى خروج أوربا الى القارات والاقطار الجديدة بقصد الاستعمار الاستيطانى . وثانيهما الاستعمار بمعنى الغزو والتملك السياسى بقصد الاستعمار الاستغلالى أو الاستراتيجى . وبانتشار حوالى ٦٠ مليونا من العنصر الاوربى الابيض على القارات الجديدة ، أرادت أوربا أن تحقق عالمية العنصر الابيض أو أوربا الكبرى ، بالولاء والتبعية بدرجة أو بأخرى . وبذلك جعل الاستعمار أوربا قلب العالم ورأسه جغرافياً وسياسياً ، وجعل العالم يتمركز حول قبلة أوربا ، كما سعى لما يمكن أن يسمى اقامة الاوروقراطية (أى حكم أوربا) العالمية على بقية العناصر البشرية الاخرى مما جعل من الاستعمار التقليدى – بعد مروره بمراحل الابادة ثم الاسترقاق ثم الاستعمار السياسى – صراع أجناس وحركة عنصرية الاستعمار سافرة فى البلدان فقد حاولت فى النهاية أن تتقنع بأقنعة الرياء والزيف فكان لذلك النظريات الانسانية فى الاستعمار مثل عبء الرجل الابيض ورسالة الحضارة والاب الابيض أو الاخ الاكبر وغير ذلك مما لا يمكن به تبرئة وصمة الاستعمار(٩) . فالواقع أن سياسات الاستعمار المتعددة كانت تضع مصلحة الدول الاستعمارية فوق كل اعتبار . وقبل التعرض لامثلة من هذه السياسات الاستعمارية ، لابد من التطرق باختصار لكيفية بسط السيطرة الاستعمارية على بلدان العالم الثالث وعلى الاخص العالمين العربى والأفريقى .

السيطرة الاستعمارية على العالم العربى :-

يمكن القول إن السيطرة الاستعمارية على العالم العربى كانت بطيئة جداً حيث أنها لم تكتمل الا فى خلال حوالى تسعين عاماً ، أى فى الفترة من ١٨٣٠ الى ١٩٢٠ ، وعلى ثلاث مراحل :

١ - مرحلة ثلاثينيات القرن التاسع عشر حيث وقعت الجزائر تحت قبضة الاستعمار الفرنسى عام ١٨٣٠ ، وعدن تحت سيطرة الاستعمار البريطانى عام ١٨٣٩ . ثم تم زحف الاستعمار البريطانى من عدن على طول الساحل الجنوبى والشرق للجزيرة العربية حتى تمت له السيطرة عليها حتى الكويت شمالاً قبل نهاية القرن .

٢ - مرحلة ثمانينات القرن التاسع عشر حيث مدت فرنسا نفوذها من الجزائر شرقاً الى تونس عام ١٨٨١ . واحتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢ . ومن مصر توسعت بريطانيا نحو السودان تحت ستار استرداد السودان للتبعية التركية عام ١٨٩٨ وتحت ستار اتفاقية الحكم الثنائى لعام ١٨٩٩ .

٣ - العقد الثانى من القرن العشرين قبل وفى أثناء الحرب العالمية الاولى حيث بدأت ايطاليا باقتطاع ليبيا من الدولة العثمانية فى ١٩١١ - ١٩١٢ بينما توسعت فرنسا من الجزائر غرباً نحو المغرب الاقصى فى عام ١٩١٢ حيث احتفظت اسبانيا بالجزء الشمالى (أو الريف المغربى) اضافة للصحراء الغربية .

وفى اثناء فترة الحرب عقدت بريطانيا وفرنسا اتفاقية سايكس بيكو السرية عام ١٩١٦ لتقسيم ورثة ما سمته الدول الاوربية الاستعمارية (وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا) رجل أوربا المريض أى الدولة العثمانية فى حالة ضعفها وانهيارها فانتهت المسألة الشرقية بالتالى بتقسيم بلاد المشرق العربى بين بريطانيا وفرنسا بعد نهاية الحرب الاولى حيث استولت فرنسا على سوريا ولبنان وفرضت بريطانيا سيطرتها على فلسطين والاردن والعراق . ولا ننسى هنا أن نشير الى وعد بلفور الذى اعطته بريطانيا سراً عام ١٩١٧ للصهيونية العالمية لانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، ويضع فلسطين تحت ما سمى بالانتداب البريطانى ، أصبح من الممكن لبريطانيا أن تساعد الحركة الصهونية فى أقامة كيان سياسى لها فى فلسطين على حساب العرب عناك .

ويلاحظ فى واقع الامر أن بريطانيا كانت أقوى الدول الاوربية الاستعمارية فى خلال القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الاولى . كما أنها تمكنت من خلال دبلوماسيتها فى الشرق الاوسط أن تحتفظ بوحدة الامبراطورية العثمانية لتؤجل تقسيمها حتى تبعد بذلك القوى الاخرى - وخاصة فرنسا وروسيا - عن هذه المنطقة الاستراتيجية . وبعد قيام حركة تركيا الفتاة ووقوفها بجانب المانيا فى الحرب الاولى .

ونسبة لحرص بريطانيا على المحافظة على مستعمراتها فى الهند والوصول لها عبر قناة السويس ، غيرت بريطانيا سياستها حيث قررت تقسيم الامبراطورية العثمانية بعد الحرب بحيث يكون لها النصيب الاكبر فى هذا التقسيم مع فرنسا . وبينما فعلت بريطانيا ذلك سراً ، كما حدث أيضاً فى وعد بلفور .

فأنها فى نفس الوقت قد خدعت الشريف حسين فى مكة من خلال المراسلات بينه وبين ماك ماهون حيث وعدت بريطانيا بمساعدة العرب فى انشاء دولة عربية مستقلة بعد الحرب مقابل وقوفهم مع الحلفاء ضد المانيا . ولم يحدث ذلك بالطبع لانها كانت تخطط ، كما رأينا ، سراً لاقتسام البلاد العربية مع فرنسا بعد الحرب .

التكالب الاستعمارى على أفريقيا :-

كان مؤتمر برلين عام ١٨٨٤ نقطة البداية للسباق المسعور الذى عرف باسم التكالب على أفريقيا من قبل القوى الاوربية الاستعمارية . وبينما تم استعمار البلاد العربية فى خلال فترة طويلة من الزمن ، نجد أن التقسيم والاحتلال الفعلى الاستعمارى لأفريقيا قد تم فى خلال عقد واحد فقط ، وذلك أيضا بعكس ما حدث فى آسيا التى أمتد الاستعمار فيها فى قطاع محدد وبعد فترة طويلة من الوقت . وبذلك تتميز أفريقيا بأن أغلبها قد وقع تحت السيطرة الاستعمارية فى فترة وجيزة ، ولم تكن بها دولة مستقلة (شكلياً) سوى ليبريا وذلك بجانب اثيوبيا .

وقد تمت المنافسة الاستعمارية على أفريقيا بين القوى الاوربية الكبرى (بريطانيا وفرنسا وألمانيا) من جهة والقوى الصغرى (البرتقال وبلجيكا وايطاليا) من جهة أخرى ، وكان النصيب الاكبر بالطبع للقوى الكبرى خاصة بريطانيا وفرنسا نسبة لهزيمة المانيا فيما بعد (الحرب العالمية الاولى) . وبينما توسعت فرنسا من الشمال الغربى باتجاه غرب أفريقيا ، نجد أن بريطانيا تحركت من الشمال الشرق فى مصر باتجاه النيل عبر السودان الى شرق أفريقيا (كينيا ويوغندا) ثم جنوب القارة عبر الروديسيتين وحتى الكاب وفى غرب أفريقيا على ساحل الذهب (غانا ونيجيريا) . وركزت المانيا على توجو والكمرون وتنجانيقا وجنوب غرب أفريقيا بينما استقرت بلجيكا فى الكونغو وسيطر البرتغال على موزمبيق وانجولا .

أما ايطاليا فقد اقتسمت فى مرحلة تالية الصومال (مع بريطانيا وفرنسا) وسيطرت على أرتيريا ثم ليبيا فيما بعد ، وبعدها غزت الحبشة فى ثلاثينيات القرن العشرين فسقط بها آخر معقل مستقل فى أفريقيا . وبعد الحرب العالمية الاولى ضمت تنجانيقا الى بريطانيا التى تقاسمت مع فرنسا مستعمرات المانيا نتيجة لهزيمتها فى الحرب[١٠] .

ويلاحظ أنه بالرغم من التنافس الاستعمارى المحموم على افريقيا الا أن القوى الاوربية الاستعمارية قد نجحت فى عملية التقسيم الاستعمارى دون اللجؤ للمواجهة العسكرية اذ التقت مصالحها المشتركة فى الاستعمار وتغلبت بالتالى على الخلافات بالوسائل السلمية .

ولعل خير شاهد على ذلك كما حدث من مواجهة بين بريطانيا وفرنسا عند وصول الاخيرة الى فاشودة فى جنوب السودان عقب دخول البريطانيين للسودان عام ١٨٨٨ حيث انتهى الامر بتراجع فرنسا وبسلام من هذه المنطقة[١١] . وأرادت بريطانيا أن تعطى نفسها بعد ذلك مبرراً شرعياً لحكم السودان فلجأت لعقد اتفاقية الحكم الثنائى على السودان مع مصر عام ١٨٩٩ .

والملاحظ فى الواقع أن بريطانيا كانت فى كثير من الاحيان تسعى قبل التدخل العسكرى المباشر لأن تمهد للسيطرة الاستعمارية بواسطة جهات خاصة كالافراد أو الشركات التجارية أو الجمعيات التبشيرية أو الاستيطان حتى يكون ذلك مبرراً بعد ذلك لسيطرتها السياسية بحجة الدفاع عن هذه المصالح. ولاشك أن هؤلاء المستوطنين والتجار والمبشرين كانوا يعملون كل فى ميدانه لخلق مجموعات استعمارية تكون لها مؤسسات ادارية وقضائية ومالية مرتبطة بالوطن الام. ويدل ذلك على تعدد أهداف الاستعمار المختلفة فى شتى المجالات كما أشار لذلك الزعيم الافريقى أحمد سكوتورى رئيس غينيا حيث كتب عن أفريقيا والثورة أنه مهما يكن من تنوع أشكال التسلل الامبريالى الى أفريقيا، ومهما يكن من أمر تنوع اشكال الادارة التى فرضتها قوى الاحتلال لتعزيز وضمان الاستغلال — ونعنى بالقوة. القوى العسكرية، وكذلك القوى الاقتصادية والمالية والثقافية والروحية، فأن الاستعمار قد تميز قبل كل شئ بوقائع ثلاثة فرضت نفسها على أفريقيا:

الواقع الاول :–

أن افريقيا قد حرمت فجأة وبشراسة من تسيير دفة مصيرها. فعندما تحولت البلدان الافريقية الى مستعمرات، وجدت نفسها مجردة من سيادتها وحريتها وبالتالى من الممارسة الفعلية لحقها الطبيعى فى حل مشاكل وجودها.

والواقع الثانى :–

هو السيطرة الاجنبية المرتكزة على استغلال شعوبنا وثرواتنا وعلى الاضطهاد الذى تمارسه فى كافة الميادين: الاضطهاد السياسى، الاضطهاد الثقافى، الاضطهاد الادارى ... الخ.

أما الواقع الثالث :–

فهو للواقعين الاولين: أنه توقف تطورنا الخاص ونضوب منابع نمو حضاراتنا. ونستطيع هنا، ونحن نقلب بين أيدينا مختلف طرق الاستعمار، أن نتوقف عند الطريقة التى عرفناها وعشناها أعنى طريقة الاستعمار، فلهذا الاستعمار خصائص، منها سعيه لصهر الشعوب المستعمرة فى بوتقة حضارية وثقافية. بحيث تعتبر هذه الشعوب نفسها متبنية لقيم وحقائق الدولة الاستعمارية المسيطرة وحده(١٣).

الحركات التحررية والاستقلال السياسى :–

لقد كان من الطبيعى أن يواجه مثل هذا الاستعمار بردة فعل مضادة من قبل الشعوب المستعمرة. ومن هنا برزت حركات التحرر الوطنى بهدف القضاء على هذا الاستعمار وبالتالى الحصول على الاستقلال السياسى. وقد تنوعت أساليب هذه الحركات التجريبية بحسب أساليب الدول الاستعمارية وبحسب الظروف الداخلية للبلدان المستعمرة. ففى البلدان التى غلب عليها طابع العنف والقهر السياسى والعسكرى كانت ردة الفعل التحررية عنيفة وقوية لأنها اعتمدت فى المقام الاول على القوة والثورة المسلحة كما حدث مثلاً فى الجزائر وكينيا وأنجولا وموزمبيق، وكما يحدث اليوم

فى فلسطين وجنوب أفريقيا . أما فى البلدان التى حظيت ببعض الاستقرار السياسى فان حركاتها التحررية قد اعتمدت فى المقام الاول على الاسلوب السلمى السياسى الا أن الكثير من هذه الحركات اضطرت فى أكثر الاحيان الى استخدام وسائل متنوعة جمعت بين العمل السياسى والعسكرى والدبلوماسى . وهذا الجانب الاخير كان الغرض منه كسب تأييد الرأى العام العالمى من خلال المنظمات الدولية والاقليمية ، وكان لذلك دور هام فى حصول بعض البلدان على استقلالها خاصة تلك التى كانت تحت نظام الحماية أو الانتداب أو الوصاية كما حدث مثلاً لتونس والمغرب والصومال[١٤] .

ويلاحظ بالنسبة للبلدان العربية أنها وبسبب خيبة الامل فى دولة الخلافة العثمانية التى قسمتها بريطانيا وفرنسا ، وبسبب السياسات الاستعمارية التى عملت على تمزيق وحدة هذه البلدان العربية ، رأت نفسها مضطرة الى اعتناق المذهب الاوربى الحديث القائم على فكرة « القومية » أى استقلال وسيادة كل دولة على حدة . ولهذا لجأ العرب الى تحقيق هذا الهدف من خلال الحركات الوطنية والثورية ضد الوجود الاستعمارى والتى حدثت تقريباً فى جميع أنحاء الوطن العربى من مشرقه الى مغربه . ومن أمثلة ذلك ثورتا ١٩١٩ و ١٩٥٢ فى مصر وثورة ١٩٢٤ فى السودان اضافة لثورات سوريا ولبنان والعراق وفلسطين ودول الخليج (ومنها عدن) والجنوب العربى وليبيا (عمر المختار) والجزائر (جبهة التحرير الجزائرية) والمغرب (حزب الريف[١٥] . ويلاحظ فى معظم هذه الحركات بعد فشل مرحلة المقاومة المسلحة الاولى والتى كثيراً ما ارتبطت بالجهاد ، أنها قامت من خلال قيادة النخبة المثقفة لها ، باستخدام اسلحة المستعمر لتوظيفها فى النضال ضده . ولذلك قامت الجمعيات الادبية والثقافية التى انتهت مع ازدياد الوعى السياسى بقيام الاحزاب السياسية كمرحلة حاسمة للوصول الى الاستقلال ، كما حدث مثلاً فى دول المغرب العربى[١٦] . وفى السودان (حيث كان لمؤتمر الخريجين الذى تأسس عام ١٩٣٨ دور بارز فى الحركة الوطنية السودانية التى قويت شوكتها مع قرب نهاية الحرب العالمية الثانية بقيام الاحزاب السياسية ذات الهدف المشترك وهو الحصول على الاستقلال[١٧] .

وبالنسبة لحصول البلدان العربية على استقلالها السياسى فأن ذلك قد تم على مرحلة زمنية تمتد لحوالى ثلاثين عاماً . وكانت نقطة البداية فى هذا الطريق هى سوريا ولبنان . وقد وضعتا بعد الحرب الاولى وقيام عصبة الامم تحت الانتداب الفرنسى فى المجموعة الاولى من الدول الاكثر تطوراً ، وحصلتا على استغلالهما بعد انسحاب القوات الفرنسية عقب الحرب الثانئية عام ١٩٤٦ بينما تقرر مصير فلسطين بقرار الامم المتحدة الخاص بالتقسيم عام ١٩٤٧ . ونسبة لهزيمة ايطاليا فى تلك الحرب وموافقة الامم المتحدة على استقلال ليبيا ، أعلن هذا الاستقلال رسمياً عام ١٩٥١ . وتأكد استقلال مصر السياسى بعد انسحاب القوات البريطانية عام ١٩٥٤ بينما حصل كل من السودان والمغرب وتونس على الاستقلال عام ١٩٥٦ ، وذلك بعد مؤتمر باندونج الذى عقد عام ١٩٥٥ . وتم بعد ذلك اجلاء القوات البريطانية عن الاردن فى عام ١٩٥٧ بينما تأكد استقلال العراق عقب ثورة يوليو عام ١٩٥٨ (والتى ترتب عليها خروج العراق من حلف بغداد) وأعلنت اليمن عن قيام الجمهورية العربية اليمنية

بعد ثورة ١٩٦٢ وهو نفس العام الذى حصلت فيه الجزائر على استقلالها بعد حرب دامت سبع سنوات ضد المستعمر الفرنسى . وكان الصومال قد حصل على استقلاله بواسطة الامم المتحدة منذ عام ١٩٦٠ وهو نفس العام الذى قررت فيه فرنسا اعطاء موريتانيا استقلالها السياسى . وانتهت آخر حلقة فى تصفية الاستعمار التقليدى فى العالم العربى بقرار بريطانيا الانسحاب من بلدان الخليج العربى عام ١٩٧١ [١٨] . بعد انسحابها من الجنوب العربى (عدن أو اليمن الجنوبية) عام ١٩٦٧ ، بينما لم تنسحب فرنسا من مستعمرة جيبوتى الا فى عام ١٩٧٧ .

أما بالنسبة للقارة الافريقية فمن المهم أن نلاحظ أن فترة العشرين عاماً التى تلت قيام الحرب العالمية الثانية ، وبالتحديد من ١٩٤٠ والى ١٩٦٠ ، لم تعبر فقط عن ازدياد قوة الحركات التحررية الافريقية وصولاً بها للاستقلال السياسى ، بل أنها كانت أيضاً أكثر فترة تميزت بالحركة والعمل بالنسبة لتاريخ الاستعمار الاوربى فى أفريقيا . فبينما ظهر قادة أفارقة استخدموا اسلحة المستعمر وأسسوا أحزاباً سياسية وطنية ، كشف المستعمرون البريطانيون والفرنسيون انشطتهم الاستعمارية ووصلوا بعد نهاية الحرب الثانية الى قناعة بأن استعمارهم المباشر لا يمكن أن يدوم طويلاً ، ودعاهم ذلك بالتالى الى اقامة مؤسسات سياسية بهدف تطبيق الحكم غير المباشر أو الحكم الذاتى كمرحلة لابد منها قبل تقرير المصير والاستقلال السياسى [١٩] وكانت نقطة البداية فى ذلك الاتجاه ما حدث فى ساحل الذهب (غانا) والذى حصل بقيادة نكروما على استقلاله عام ١٩٥٧ .

وتبعته نيجيريا بعد ثلاث سنوات (١٩٦٠) بسبب انقساماتها الداخلية الى ثلاث مجموعات عرقية رئيسية (الهوسا فى الشمال والايبو فى الشرق واليوروبا فى الغرب) . وأعقب ذلك استقلال سيراليون عام ١٩٦١ وجامبيا عام ١٩٦٥ فأنتهى بذلك الاستعمار البريطانى فى غرب أفريقيا بينما تعثر الحال فى شرق افريقيا حيث نتج عن الاستعمار الاستيطانى فى كينيا نشوب حركة عنيفة من قبل الكيكويو عرفت باسم حركة الماو الماو عام ١٩٥١ ، كما حدثت أيضا حركة مشابهة فى يوغندا تمثلت فى مملكة يوغندا . وحصلت تنجانيقا بقيادة نايريرى على استقلالها فى نهاية ١٩٦١ بينما تمت تصفية الاستعمار البريطانى فى شرق أفريقيا عام ١٩٦٣ بعد استقلال يوغندا (بقيادة أبوتى) وكينيا (بقيادة كنياتا) وزنجبار (التى كونت فيما بعد مع تنجانيقا دولة تنزانيا [٢٠] وذلك اضافة الى نياسالاند (ملاوى) وروديسيا الشمالية (زامبيا) .

وفيما يخص المستعمرات الفرنسية فى أفريقيا والتى ركز فيها الفرنسيون على السيطرة الثقافية الكاملة فيما عرف بسياسة الادماج مع الوطن الام ، نلاحظ أن رد الفعل الافريقى قد استخدم نفس السلاح لاثبات الشخصية الافريقية الحضارية ، كما وضح مثلاً من اشعار وكتابات سنغور فى السنغال عن مفهوم الزنجية . ولكن فرنسا أرادت استمرار الابقاء على مستعمراتها فى اطار دولة عظمى عرفت بأسم الاتحاد الفرنسى الذى عدلته فرنسا بعد ذلك الى نظام أضعف (كونفدرالى) عرف بأسم المجموعة الفرنسية وهى أقرب لنظام الكومونولث البريطانى . ووافقت جميع المستعمرات الفرنسية على دعوة الجنرال ديجول عام ١٩٥٨ لتكوين هذه المجموعة الفرنسية ما عدا غينيا بقيادة سيكوتورى حيث

تلك المنطقة العربية[٢٤] . ولا يخفى على أحد اليوم أن ما يحدث فى لبنان منذ سنوات من حرب بين المليشيات هو فى الواقع نتاج للسياسة الفرنسية التي جزأت الطوائف الدينية فى لبنان حيث ميزت بين المارونيين والدروز والسنة والشيعة وابتدعت نظاماً سياسياً معقداً على أساس هذه الطوائف الدينية. ويضاف الى ذلك سياسة التفرقة التى طبقتها فرنسا فى دول المغرب العربى بين العرب والبربر منذ أن اتت بما عرف بأسم الظهير البربرى فى المغرب الاقصى (مراكش سابقاً) فى بداية الثلاثينيات مما دفع الحركة الوطنية المغربية لرفض هذه السياسة باعتبارها سياسة تجزئة للمسلمين وللتراب المغربى[٢٥] . ولا زالت الجزائر تعانى من هذه المشكلة فى منطقة القبائل القريبة من الجزائر العاصمة نتيجة للسياسة الاستعمارية الفرنسية التى شجعت عناصر البربر على التمسك بالتباين العرقى والثقافى وذلك بالرغم من تمازج هذه العناصر مع العرب فى اطار الاسلام والحركة الوطنية الجزائرية.

وتجدر الاشارة أيضا الى التجزئة الكبرى التى نظمها الاستعمار بين المشرق والمغرب حيث وضعت ايطاليا فى ليبيا كحاجز لفصل المشرق الخاضع للاستعمار البريطانى عن المغرب الذى سيطرت عليه فرنسا – وقد سعت الدولتان الاستعماريتان – بريطانيا وفرنسا – لمنع قيام اتصالات بين المشرق والمغرب حتى لا تحدث وحدة قومية بينهما تهدد الوجود الاستعمارى فى الوطن العربى ، وقامت ايطاليا كذلك بنفس سياسة التجزئة داخل ليبيا لاثارة النعرات الاقليمية مما أدى لقيام دولة اتحادية فى ليبيا بعد الاستقلال عام ١٩٥١ ، كما حدث أيضا نفس الشئ فى نيجيريا عام١٩٦٠ نتيجة لسياسة التجزئة البريطانية التى طبقا أيضا فى السودان وجعلت جزءاً من الجنوبيين يطالبون حتى اليوم بدولة اتحادية (فدرالية) . ولكن بالرغم من سياسة التجزئة الاستعمارية بين المشرق والمغرب فان ليبيا كانت حلقة الوصل التى انتقلت عبرها الحركة الاصلاحية السلفية بزعامة جمال الدين الافغانى ومحمد عبده من المشرق الى المغرب العربى كما أن ليبيا كانت مقر اجتماعات المجلس الوطنى للثورة الجزائرية حيث وقع فيهما ميثاق طرابلس فى مارس عام ١٩٦٢ . بينما كونت فى القاهرة منذ عام ١٩٤٨ لجنة تحرير المغرب العربى من الحركات الوطنية بهدف التحرر من الاستعمار الفرنسى وبمساعدة الجامعة العربية التى تأسست عام ١٩٤٥ فى القاهرة[٢٦] .

واذا كان الاستعمار التقليدى الذى اتبع سياسة التجزئة قد سعى لفصل المشرق والعربى عن المغرب العربى ، فأنه أيضا قد اتبع هذه السياسة فى داخل منطقتى القرن الافريقى والمغرب الاقصى. وقد ظهرت الاهمية الاستراتيجية للقرن الافريقى بعد افتتاح قناة السويس فى نوفمبر ١٨٦٩ مما أدى لتنافس ثلاث دول استعمارية هى بريطانيا وفرنساوايطاليا حيث احتلت بريطانيا شرق القرن الافريقى وأخذت جزءاً من الصومال ، واتخذت فرنسا لنفسها محمية فى ميناء جيبوتى ، بينما استولت ايطاليا على ما تبقى من سواحل المنطقة ممثلاً فى بقية الصومال واقليم أرتريا .وفى عهد موسولينى قامت ايطاليا بغزو اثيوبيا عام ١٩٣٦ وضمت اقليم اوغادين (الصومال الغربى) الى الصومال الايطالى ، ولكن وبعد هزيمة ايطاليا عام ١٩٤١ ، وضعت كل من أرتريا وأوغادين تحت الادارة البريطانية التى حلت محلها أثيوبيا فيما بعد . وتقرر بعد الحرب مصير كل من الصومالوأرتريا بواسطة الامم المتحدة الا أن ارتريا

ضمت رسمياً لاثيوبيا عام ١٩٦٢ مما أثار حرب تحرير أرترية . وأعلنت الصومال بعد استقلالها عام ١٩٦٠ أن الاستعمار كان قد قسمها الى خمسة أجزاء وأن الصومال الطبيعية تضم اضافة الى الصومال البريطانى والصومال الايطالى وجيبوتى اقليمى أوغادين وشمال شرق كينيا . وهذا ما أثار قضايا الحدود بين البلدان التى خضعت للاستعمار من قبل مما أدى أحيانا لنشوب حروب بينهما كما حدث بين الصومال وأثيوبيا فى عام ١٩٦٤ وكذلك فى ٧٧ – ١٩٧٨ .

وبالنسبة للمغرب الاقصى نجد أن المغاربه يرون أن بلادهم قد قسمت الى عشر مناطق استعمارية :

الجزء الجنوبى (فرنسا) ، الجزء الشمالى (اسبانيا) ، طنجة (ادارة دولية) ، سبته ومليلة (اسبانيا) ، موريتانيا (فرنسا) ، افنى (اسبانيا) ، طرفاية (اسبانيا) ، الساقية الحمراء (اسبانيا) ، وادى الذهب (اسبانيا) منطقة تندوف الحدودية (أضيفت للجزائر بواسطة فرنسا) . وقد حدثت حرب على الحدود بين الجزائر والمغرب عام ١٩٦٣ ، كما دخلت المغرب فى مواجهة عسكرية غير مباشرة مع الجزائر بعد انسحاب اسبانيا من الصحراء الغربية (الساقية الحمراء ووادى – الذهب) منذ عام ١٩٧٥ ، وترى المغرب أنه لم يبق لها سوى سبته ومليلة .

ولا شك أن كل هذه المشاكل التى يعانى منها العالم العربى اليوم ، مما يعرقل عملية الوحدة السياسية للوطن العربى ، تجد جذورها فى سياسة التجزئة الاستعمارية التى قصدت تفتيت وحدة البلدان العربية . وقد بدر الاستعمار التقليدى ما هو أخطر من ذلك فى الوطن العربى حيث أنشأ فى فلسطين كيانا استعماريا استيطانيا مازال يسعى أيضا لتمزيق وحدة العرب بشتى الوسائل وبتأييد من الاستعمار الجديد .

الاستعمار الاستيطانى فى فلسطين : الصهيونية :–

تزعم الصهيونية أنها حركة تحرير وطنية وقومية وأنها سعت بذلك لانشاء وطن قومى أو دولة لليهود ، والحقيقة أنها حركة سياسية استعمارية تقنعت بالدين وظهرت فى فترة التكالب الاستعمارى على أفريقيا بعد مؤتمر برلين حيث أن مؤسسها ثيود ورهرتزل . الذى كون المنظمة الصهيونية فى مؤتمر بال بسويسرا عام ١٨٩٧ ، قد دعا لقيام دولة يهودية . ولما رفض السلطان العثمانى عبد الحميد اقامة دولة لليهود فى فلسطين ، لجأت المنظمة الصهيونية الى بريطانيا حتى حصلا على وعد بلفور عام ١٩١٧ . وقامت اسرائيل بالتالى على أساس الاستعمار الاستيطانى فى فلسطين بواسطة الهجرة المنظمة وغير المنظمة لشراء الاراضى .

ولم تكن لذلك حركة تحرير ضد الوجود الاستعمارى كما فعل عرب فلسطين ضد الاستعمار البريطانى [٢٧] . كما لم تكن حركة قومية لان اليهود لا يشكلون قومية واحدة بل هم اشتات من بلاد مختلفة ولا تجمعهم سوى العقيدة الدينية اليهودية .

كذلك تزعم الصهيونية أن أيدولوجيتها قد نشأت كرد فعل لمعاداة السامية التى يعتبرونها مرتبطة

بالصراع الاجتماعى والسياسى الدائر فى المجتمع ، وأن اللاسامية أبدية طالما كان لليهود وجود بين قوميات أخرى ، اذ أن العداء العنصرى والكراهية بين الشعوب انما يتلائمان مع المجتمع البشرى ، ويعيشان فى التكوين النفسى[٢٨] .

والواقع أن الصهيونية فى تعريفها الحقيقى هى الحقد المترسب فى نفوس أصحابها بسبب التشريد والتشتت الذى أصاب اليهود وبسبب الاضطهاد الدينى (بعد اتهام الكنيسة لهم بقتل المسيح عليه السلام) والاضطهاد السياسى (كما وضح من قضية الضابط اليهودى درايفوس فى فرنسا) وأخيراً الاضطهاد العنصرى (من قبل النازية الهتلرية) والذى تعرضوا له فى أوربا .

ولهذا جاءت الصهيونية وهى تحقد على الانسانية كلها وعلى أصحاب الاديان الاخرى وخاصة المسلمين بالرغم من تسامح الاسلام والمسلمين مع اليهود وحمايتهم من الاضطهاد الاوربى الذى عرف باسم اللاسامية . ولهذا سعت الصهيونية لاقامة دولة توسعية تنطلق من أرض العرب والمسلمين نحو السيطرة على العالم واستغلال ثرواته ، كما تهدف فى نفس الوقت لان تكون هذه الدولة يهودية عنصرية لا تختلف فى مضمونها عن الدولة النازية الهتلرية[٢٩] .

وليس من قبيل المبالغة أن تشبه اسرائيل بالدولة النازية فهناك فى الحقيقة أوجه كثيرة للمقارنة بينهما يمكن تلخيصها فى الآتى[٣٠] .

١ - الصهيونية استعمار عنصرى مطلق لانها تنادى بتفوق الجنس اليهودى على أساس شعار شعب الله المختار وذلك على غرار مناداة النازية بسيادة الجنس الارى وبأن تكون المانيا فوق الجميع .

٢ - الصهيونية هى استعمار توسعى فى أساسه حيث أن ما ورد فى خريطة اسرائيل الكبرى، وهو من النيل الى الفرات أرضك يا اسرائيل هو شعار الامبراطورية الصهيونية الموعودة للسيطرة على العالم ، كما كان حلم النازيين فى الماضى باقامة امبراطورية لهم فى أوربا لتكون قاعدة للسيطرة على العالم .

واذا كانت اسرائيل تستخدم اليوم ذريعة الحدود الامنة للتوسع العدوانى الاستراتيجى والاقتصادى (منذ حرب ١٩٤٨ ثم ١٩٥٦ و ١٩٦٧ و ١٩٧٣ وحتى ١٩٨٢ فى لبنان) ، فأن المانيا النازية قد استخدمت أيضا من قبل (عبارة المجال الحيوى للشعب الالمانى) .

٣ - الصهيونية استعمار استيطانى حيث ركزت على احتلال الارض بالاسكان ، ولهذا سعت لابادة الفلسطينين (أمثال مذبحة دير ياسين فى فلسطين ومذابح صبرا وشاتيلا فى لبنان) أو طردهم من أراضيهم فأصبحوا لاجئين كما فعلت النازية فى مخططها لابادة وتشريد أهالى البلاد الاصليين ليحل الالمان محلهم وذلك على أساس (سياسة كسب الارض) .

٤ - الصهيونية استعمار استغلالى اذ انها تسعى لاستنزاف طاقات الفلسطينين العرب الموجودين فى الاراضى المحتلة لمصلحة اقتصادها ومن أجل رفاهية اليهود على حساب العرب[٣١] . وذلك كما فعلت النازية عندما اعتبرت بولندا مخزناً احتياطياً دائماً لامدادها بالعمال اللازمين للاعمال الشاقة .

٥ – الصهيونية استعمار ادماجى حيث تسعى اسرائيل لصهينة الاراضى العربية المحتلة فى الضفة الغربية والجولان والقدس وذلك من خلال سياسة التدمير للمدن العربية تحت ذريعة الضربات التأديبية رداً على العمليات الفدائية الفلسطينية ، وهذا ما فعلته النازية أيضا فى سعيها لجرمنة أقاليم شرق أوربا .

٦ – الصهيونية استعمار استراتيجى يقوم على العسكرية حيث تحولت اسرائيل الى قاعدة وترسانة عسكرية فى سياستها الاقتصادية بشكل يخدم اطماعها التوسعية ، كما أن سياسة (اقتصاد الحرب) كانت هى السياسة التى اعتمدتها النازية فى مشاريعها .

٧ – الصهيونية استعمار معاد للتنظيم الدولى حيث تجاوز الصهاينة فى اسرائيل كل الاعراف والقوانين الدولية بدأ بخرق ميثاق الامم المتحدة وقراراتها منذ تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ ، وذلك كما خالفت النازية من قبل كل الاعراف والقوانين الدولية فى مسلكها وسياساتها .

٨ – الصهيونية استعمار حضارى يرمى الى تدمير الحضارة العربية الاسلامية لتحل محلها الحضارة العلمانية الغربية التى سارت عليها اسرائيل من خلال سيطرة اليهود الغربيين (الاشكناز) على اليهود الشرقيين (السفارديم) حيث تزعم اسرائيل حمل رسالة الحضارة والتطور فى صحراء الرجعية العربية ، وهذا ماكانت تدعيه ايضا ألمانيا النازية فى نشر رسالتها الايدلوجية للعالم الخارجى .

وخلاصة الامر ان الصهيونية ممثلة فى اسرائيل هى تجسيد للاستعمار المتعدد الاغراض وهو استعمار بالاصالة والوكالة فى نفس الوقت حيث أن اسرائيل قامت واقيمت بفعل ولحساب نفسها والصهيونية العالمية ، وكذلك قامت وأقيمت بفعل ولحساب الاستعمار العالمى الذى تضايقت الصهيونية العالمية الى حد التماثل مع خططه ومصالحه . واسرائيل كجسم استعمارى واقع تمثل استعماراً قديماً ، ولكنها وبدور الاستعمار العالمى فى كيانها وأمنها تمثل اداة وقاعدة للاستعمار الجديد ، وقد التقى فيها بالتالى الاستعمار القديم والجديد بدون صراع أو تنافر اذ كانت برطانيا (الاستعمار القديم) هى التى اقامتها ، ولكنها سلبتها بعد ذلك طواعية لوصاية امريكا (الاستعمار الجديد) التى تمارس عليها اسرائيل ولحساب الصهيونية العالمية نفوذاً وضغطاً لا يتناسب مع الولايات المتحدة (كأحدى الدولتين الكبيرتين) . وعلى كل فان اسرائيل فى نهاية الامر اخطر تحديات الاستعمار فى التاريخ العربى . ، ولعلها أعلى مراحله فى الوطن العربى ، كما أن الصهيونية العالمية هى اعلى مراحل الامبريالية العالمية(٣٢) . واذا كانت اسرائيل هى الشركة التى تؤرق العالم العربى ، فأن جنوب أفريقيا العنصرية هى أيضا شركة أخرى لا تؤرق القارة الافريقية فحسب بل والعالم الثالث بأكمله .

الاستعمار الاستيطانى فى جنوب أفريقيا : نظام الفصل العنصرى :–

خضعت جنوب افريقيا تاريخياً للاستعمار الهولندى (١٦٥٢ – ١٨٠٦) . ثم اصبحت بعد ذلك تحت السيطرة البريطانية قبل أن تعلن الاقلية البيضاء استقلالها بعد حرب البوير وقيام اتحاد جنوب أفريقيا فى عام ١٩١٠ . ولم تكن تلك الاقلية البيضاء تزيد عن ثلث السكان ولكنها أمتلكت ٨٧ ٪

من الأراض تاركة ١٣ ٪ فقط من الاراضى للأفارقة الذين يشكلون أكثر من ثلثى السكان.

ومنذ وصول الحزب الوطنى للسلطة عام ١٩٤٨ ، ازدادت قوانين الفصل العنصرى (الابارتايد فى لغة الافريكان) للتمييز بين البيض والسود . ونسبة للنقد الذى وجه للنظام العنصرى ، انسحبت حكومة جنوب أفريقيا من الكومونولث واعلنت نظام الجمهورية البرلمانية بموجب دستور ١٩٦١ وبدون اشراك للاغلبية السوداء فى الحكم مما أدى ، اضافة لقوانين الفصل العنصرى ، الى مقاومة الافارقة للحكم العنصرى منذ ١٩٥٩ والى مذبحة شاريفيا المشهورة ١٩٦٠ ضد السود الذين استمروا فى مقاومتهم منذ ذلك التاريخ من خلال أسلوب القوة والعنف (خاصة بعد سجن الزعيم نلسون مانديلا عام ١٩٦٥).

أما بالنسبة لاقليم جنوب غرب أفريقيا – ناميبيا – فقد خضع للاستعمار الالمانى بعد مؤتمر برلين وحتى هزيمة المانيا فى الحرب العالمية الاولى حيث وضع هذا الاقليم فى عام ١٩٢٠ تحت انتداب حكومة جنوب أفريقيا[٣٤] . وفى عام ١٩٤٦ رفضت حكومة جنوب افريقيا أن تضع اقليم جنوب غرب افريقيا تحت نظام الوصاية الدولية ، وبالرغم من قرارات الامم المتحدة ، المتعددة حول مسئوليتها عن هذا الاقليم ، فانه ما يزال يخضع فعليا لسيطرة حكومة بريتوريا العنصرية التى ضمت هذا الاقليم لجنوب افريقيا وطبقت عليه سياسة الفصل العنصرى ، كما أنها أخضعت لتبعيتها الدول الافريقية الثلاث المجاورة والتى حصلت على استقلالها من بريطانيا وهى باسوتولاند (والتى اصبحت ليسوتو بعد استقلالها عام ١٩٦٦) وبستوانا لاند (التى اصبحت بتسوانا فى نفس العام) وسوازيلاند (عم ١٩٦٨)[٣٥] .

ويلاحظ فى نظام الفصل العنصرى أن القول بأن البيض والسود مختلفان وأن السود ليسوا كالبيض هو أساس هذا النظام ، وعليه فأن اختلاف العنصرين معناه فى هذه الحالة الا يتوقعا المساواة فى المعاملة اذ ان العنصر الاسود يعتبر أدنى مرتبة من العنصر الابيض ولذلك فانه ليس هناك الا تلك العلاقات التى تكون بين السيد وخادمه ، فالبيض وحدهم هم أصحاب المقاعد فى الجمعية التشريعية ويتمتعون باحتكار المنافسات والتصويت واعداد الميزانية والادارة والتخطيط واتخاذ القرارات ، وهم الذين يشكلون سياسة كل شئ فى أفريقيا الجنوبية الغربية لصالحهم[٣٦] . كما هو الحال ايضا فى جنوب افريقيا التى تسيطر على هذا الاقليم الذى شهد بعد الغزو الالمانى خيانة ميثاق الانتداب ثم التفرقة العنصرية من قبل حكومة أفريقيا . وبذلك يكون الاستعمار فى جنوب أفريقيا ، والذى أصبح أيضا استعماراً توسعياً حيث فرض سيطرته على اقليم ناميبيا بقوة السلاح وبنفس اسلوب الارهاب والقمع الذى تمارسه اسرائيل فى الاراضى العربية المحتلة . وكما هو الحال بالنسبة لاسرائيل فان الاستعمار الاستيطانى العنصرى التوسعى لم يكن ليستمر حتى اليوم لولا ذلك الدعم الذى يجده من الامبريالية العالمية التى تستفيد من استمرار هذا الوضع وتسعى لخدمة مصالحها الذاتية على حساب الشعوب الأخرى . وهنا ، وكشأن اسرائيل التى من الطبيعى أن تكون لها صلات وثيقة وحميمة وتعاون هام مع حكومة جنوب افريقيا العنصرية ، نجد مرة أخرى ذلك اللقاء بين الاستعمارين القديم والحديث مما يقودنا للحديث عن الاستعمار الجديد .

الاستعمار الجديد :-

تميز الوضع الدولى بعد الحرب العالمية الثانية بظهور قوتين جديدتين عملاقتين (ماموث) - هما الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى .

وبالرغم من التناقضات الجذرية بينهما فى الموقع والاستراتيجية والايدولوجية ، الا أن بينهما مشابهات عديدة فكلاهما دولة حديثة النشأة وقوة عظمى أشد حداثة فى الساحة الدولية ، كما أن لكل منهما مساحة ضخمة واعداد متقاربة من السكان تقريباً ، وكانا فى عزلة طويلة وبدون تاريخ استعمارى يمكن مقارنته بالاستعمار الاوربى القديم . ومع ذلك فان كلا منهما يتهم الآخر بممارسة الاستعمار بطريقة أو بأخرى . فالاتحاد السوفيتى ورث بعد ثورة ١٩١٧ امبراطورية القياصرة كما هى ولم يتخل عن الاقاليم التى عدت مستعمرات كاواسط اسيا ، بل أكثر من هذا ضم فيما بعد مزيداً من الاراضى . أما الولايات المتحدة فقد ضمت عديداً من الجزر فى المحيط الهادى وفى البحر الكاريبى بالغزو حينا وبالشراء حينا آخر . واذا كان الاتحاد السوفيتى يتهم الولايات المتحدة فى هذا بالاستعمار الاستراتيجى وكذلك الاستعمار الاقتصادى فى العالم الخارجى كبديل عن الاستعمار السياسى المباشر فأن الولايات المتحدة ترد له الاتهام (بالاستعمار المذهبى) أو الايديولوجى الذى يختفى من السطح ليعمل سراً هدماً وتخريباً(٣٧) .

ويلاحظ أيضاً بالتالى أن الوضع الدولى قد تميز بظهور (القطبية الثنائية) فى شكل كتلتين كبيرتين تتقاسمان العالم كمعسكرين مسلحين هما الكتلة الشرقية الشيوعية والكتلة الغربية الرأسمالية ، ودخل معها العالم فى مرحلة العصر النووى وما عرف باسم (توازن الرعب النووى) . ولا شك أن التنافس الصريح والخفى بين هذين المعسكرين بقيادة الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ، لكسب المزيد من التفوق ولتأمين المصالح الاستراتيجية والاقتصادية والايديولوجية لكل منها ، قد أدى بالتالى الى بروز ظاهرة الاستعمار الجديد الذى يسعى كما ذكرنا سابقاً ، لنفس أهداف الاستعمار القديم ولكن بوسائل خفية وغير مباشرة . وقد لاحظنا من قبل كيف ان الاستعمار القديم قد مهد بسياساته المختلفة والرامية الى اضعاف البلدان المستعمرة والى خلق كيانات استيطانية ، لا يجاد التربة الملائمة لنشاطات الاستعمار الجديد .

والحقيقة أن الاستعمار القديم قد طرح قبل خروجه مسألة (الفراغ) فى البلدان المستعمرة بعد حصولها على الاستقلال وكأنه يتحدث فى ذلك عن أقاليم بدون سكان فقد طرح الاستعمار قضيتين تتشابهان هما : هل يترك الخروج الابيض (فراغاً) حضارياً أو اقتصادياً خطيراً فى المستعمرات المتحررة ؟ أيترك كذلك (فراغاً) سياسياً يهدد التوازن الدولى ؟ وقد كان هدف الاستعمار فى ذلك هو محاولة اضعاف تيار التحرر فى تلك المستعمرات لكى تشعر بأنها لا تستطيع الاستغناء عن المستعمرين فى المجالات الاسياسية والحضارية والاقتصادية . وكذلك لجأ الاستعمار متعمداً قبل خروجه الى تجزئة وتفتيت مناطقه السابقة حتى يضمن وراءه نسيجاً سياسياً ضعيفاً ومتهالكاً وذلك بالرغم من أن الاستعمار سعى أيضاً بشتى الطرق لفرض اتحادات مصطنعة وتجمعات اقليمية مفتعلة ضد ارادة

الوطنيين . ومن أمثلة ذلك اتحاد وسط أفريقيا ومشروع الهلال الخصيب ومشاريع اتحادات شرق افريقيا وغرب افريقيا . ويتضح من هذه البلقنة المخططة بروز أول مظهر من مظاهر الاستعمار الحديث (٣٨) .

ولابد من الملاحظة هنا أن الولايات المتحدة قد سعت بعد الحرب العالمية الثانية الى أن تحل محل بريطانيا وفرنسا فى المناطق التى تخضع لسيطرتها الاستعمارية . وبما أن الولايات المتحدة كانت تنفرد وحدها بالسلاح الذرى حتى عام ١٩٤٩ بينما كانت الحرب الباردة والصراع المذهبى على أشدهما بينها وبين الاتحاد السوفيتى ، فأنها سعت فى ظل هذه الظروف لوضع سياسة الاحتواء أو التطويق الامريكية على يد جورج كينان تحت سيطرة ادارة الرئيس ترومان عام ١٩٤٧ . وكانت تهدف السياسة الى تجميد توزيع الكتلة الشرقية وعدم توغلها خارج (الستار الحديدى) كحد أدنى ، وربما محاصرتها (تحريرها) فى النهاية كحد أقصى (٣٩) .

ولهذا وقعت الولايات المتحدة مع تركيا واليونان اتفاقية لمنع توسع النفوذ الشيوعى فى داخلها ، كما قدمت بعد ذلك من خلال مشروع مساعدات اقتصادية لدول أوربا بينما سعت بعد انشاء حلف الاطلنطى عام ١٩٤٩ لاقامة أحلاف أقليمية لتطويق الاتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية : حلف بغداد والحلف المركزى فى الشرق الاوسط اضافة لمنظمة حلف دفاع الشرق الاوسط ، ثم حلف جنوب شرق آسيا اضافة لوجود الولايات المتحدة فى اليابان وكوريا الجنوبية والصين (فورموزا) وتايوان .

ولكن سياسات الولايات المتحدة لم تنجح فى فترة الخمسينيات حيث فشلت سياسة الاحتواء فى الحرب الكورية (٥١ - ١٩٥٢) ، وقامت مصر فى عهد عبد الناصر بكسر احتكار السلاح من خلال (صفقة الاسلحة) مع الكتلة الشرقية (تشيكوسلوفاكيا) عام ١٩٥٥ (٤٠) كما فشلت سياسة الاحلاف الاقليمية بعد ثورة العراق عام ١٩٥٨ . وقد تحولت الولايات المتحدة فى الستينات بسبب انحسار نفوذها بالمد الثورى فى العالم الثالث ، الى قوة عدوانية جعلت من نفسها (رجل بوليس العالم) . وجعلت هدفها أن تفرض سلامها ، السلام الامريكى ، على العالم . فشهدت الجبهة الافريقية والآسيوية مداً استعمارياً متصلاً وكاسحاً من غانا وغينيا وحتى فيتنام واندونوسيا ، ومن مصر حتى الهند ، وذلك بهدف تصفية سياسة عدم الانحياز بسلاح الاستعمار الجديد (٤١) . واستفادت فى ذلك من سياسة (التعايش السلمى) مع الاتحاد السوفيتى .

وكما تراوحت (امبريالية اليانكى) فى امريكا اللاتينية (حيث طبق مبدأ مونرو منذ ١٨٢٣) بين سياسة العصا الغليظة وحسن الجوار ، تراوحت سياسة الولايات المتحدة فى العالم الاسيوى الافريقى بين الاغراءات المادية والقوة : بين سياسة المساعدات والقروض والمنح وبين مؤامرات المخابرات والنقلابات والغزو من الداخل حيث شهدت افريقيا وحدها مثلاً ١٢ انقلاباً فى عام ١٩٦٦ . وعندما لم تنجح سياسة المعونات أو الانقلابات ، كانت الولايات المتحدة تلجأ الى سياسة الضغط الاقتصادى والتجويع والحرب النفسية والحملات الدعائية دائماً والى العدوان المسلح المقنع أحياناً وذلك حسب ما تقتضيه الظروف . فقد وقفت عند الضغط الاقتصادى فى حالة الهند مثلاً ، بينما وصلت الى حد

العدوان العسكرى المقنع فى الشرق العربى حيث تخفت النجمة الخماسية (الولايات المتحدة) وراء النجمة السداسية (اسرائيل) فى الحرب العربية – الاسرائيلية . وأخيراً فان الولايات المتحدة بتوسعها لمبدأ منرو من خلال مبدأ ترومان ومبدأ ايزنهاور وخطة جونسون الاسيوسة ، فانها تبدو قد لوحت بأنها تعتبر كل العالم خارج المعسكر الشرقى (فراغاً) ضخماً وأن (عبء الرجل الامريكى) هو ملء هذا الفراغ . ومهما يكن الرأى ، فالامر المؤكد أن الولايات المتحدة قد أصبحت معادية فى تلك الفترة للعالم الثالث وان المواجهة بينهما صارت مبارزة مباشرة بين الاستعمار الجديد وحركة عدم الانحياز التى تأسست فى مؤتمر بلغراد عام (١٩٦١) على وجه التحديد ، وهى مواجهة أبعد ما تكون عن التكافؤ أو العدالة[٤٢].

ويلاحظ فى نهاية هذا السرد العام عن بروز ظاهرة الاستعمار الجديد فى العالم الثالث أنه بينما ولد التعايش السلمى[٤٣] بين الكتلتين بعد أزمة كوبا فى أوائل الستينات نجد أن (الوفاق الدولى) قد ارتبط بكارثة حرب فيتنام فى أوائل السبعينيات ، أى أن كليهما قد ولد فى اطار الحرب الباردة . وقد جاء (الوفاق) كرد مشترك من القطبين على انقسام الكتل (الوحدة الاوربية من جهة والصين الشعبية من جهة أخرى) وعلى وجود مجموعة دول عدم الانحياز فى نفس الوقت وعليه فالوفاق يعنى فى حقيقة الامر التفاهم بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى على الا يدعا صراعات مع الاخرين تؤدى الى الصدام المباشر بينهما . ولهذا ذهب الكثيرون فى العالم الثالث ، خاصة فى الصين ، الى اعتباره (تواطؤ) يستهدف تقسيم العالم الثالث الى مناطق نفوذ جديدة مثلما استهدفت يالتا بعد الحرب الساخنة الثانية اقتسام أوربا وربما يفسر لنا ذلك ما حدث فى حرب اكتوبر ١٩٧٣ وكذلك الصراعات الاقليمية الاخرى مثلاً حرب الهند – الباكستان والحرب فى كمبوتشيا ولاوس فى آسيا ، وكذلك ما حدث فى أنجولا وموزمبيق وحرب القرن الافريقى (حيث تغيرت موازين القوى فأرتبطت اثيوبيا مع الاتحاد السوفيتى الذى خسر الصومال لصالح الولايات المتحدة) وذلك اضافة لارتباط ليبيا وعدن وسوريا والعراق مع الاتحاد السوفيتى الذى تدخل عسكرياً فى افغانستان وفى نفس الوقت الذى خرجت فيه الولايات المتحدة من ايران المجاورة[٤٤] . وهذا يقودنا للحديث عن بعض نماذج سياسات الاستعمار الحديث فى العالم الثالث .

كما لاحظنا سابقاً فان الاستعمار الحديث هو الشكل الجديد للاستعمار التقليدى فهو بالتالى امتداد له فى العالم المعاصر حيث انه يسعى أيضاً لفرض التبعية العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية والايديولوجية على العالم الثالث ، ولكن بأساليب جديدة وغير مباشرة . وتستخدم الامبريالية العالمية الجديدة أساليب متعددة ومختلفة للوصول الى أهدافها المصلحية ونكتفى فى هذا المجال بذكر بعضها وبشكل موجز .

تشجيع الحروب الاقليمية واقامة القواعد العسكرية ؟

يشجع الاستعمار الحديث الحروب الاقليمية القائمة على مشاكل الحدود التى تلاعب بها الاستعمار التقليدى من قبل ، وذلك بهدف زيادة مبيعاته من الاسلحة من ناحية وانهاك القوى الاقتصادية لهذه

البلدان من ناحية أخرى . ولا شك أن الحرب العراقية - الايرانية التى استمرت حتى الان لاكثر من خمس سنين وما زالت مستمرة خير شاهد على ان المستفيد الوحيد من هذه الحرب هو الامبريالية العالمية الجديدة ، كما أن حروب الحدود ما زالت قائمة وتنفجر من وقت لآخر . ومثال ذلك ما حدث فى بداية هذا العام بين مالى وبوركينو (فاسو) (فولتا العليا سابقاً) . وفى ذلك يقول أحمد سيكوتورى :- « هناك من يحاول أن يفسر لنا ، وينجح احياناً فى اقناعنا ، ان من مصلحتنا القيام بحروب تصحيح للحدود واعادة الهيكل السياسى القديم لافريقيا ما قبل الاستعمار ، وهذا ما يلائم فى الواقع مصالح الاستعمار الجديد »(٤٥) ويبدو أن (الوفاق) بين الدولتين العملاقتين قد قام على اساس (التنافس مع التعايش) اذ اتفق الجانبان على المقاومة بدل المواجهة(٤٦) . ولا شك أن العالم الثالث هو المتضرر الوحيد من هذا التنافس بين العملاقين وفى ذلك يصدق المثل الاسيوى : اذا تصارعت الافيال فالمتضرر الوحيد هو العشب .

ومن الامثلة الاخرى لاساليب الاستعمار الحديث اقامة القواعد العسكرية حيث يلاحظ أن الدوائر فى الغرب تلجأ الى الابتزاز والتمهيد كى تنتزع من البلدان الاخرى موافقتها على السماح للقوات الاجنبية بالبقاء فى اراضيها واقامة قواعد لقواتها الجوية أو البحرية . ويمكن تفسير وجود هذه القواعد العسكرية للدول الامبريالية بالاسباب التالية(٤٧) .

١ - انها أدوات هامة للاحتفاظ بالاستعمار أو اتباع سياسة استعمارية جديدة .

٢ - انها تستخدم كسلاح للتدخل فى الشئون الداخلية والخارجية للدول المقامة على أراضيها .

٣ - أنها وسيلة مريحة للسيطرة على الاتصالات الدولية وجميع المعلومات العسكرية والسياسية والاقتصادية عن طريق التجسس .

٤ - انها تقدم على الاراضى الاجنبية مزايا تجارية معينة للبلد الذى اقامها .

٥ - انها تخدم للولايات المتحدة وغيرها من البلدان الرأسمالية أغراض العدوان ، وذلك على أساس الاعتقاد السائد فى الغرب أن الدول الامبريالية يمكنها بسهولة أن تشن هجوماً ناجحاً ضد الاتحاد السوفيتى والبلدان الاشتراكية الاخرى مستفيدة فى ذلك من شبكة القواعد العسكرية ، ولا شك أن القواعد العسكرية تشجع الامبرياليين على انتهاج سياسة مراكز القوة لا ضد البلدان التى تقع فيها وحسب ، وانما ضد الدول المجاورة كذلك ، كما حدث مثلاً بعد تأميم قناة السويس فى العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ عندما قصفت الطائرات البريطانية ، من قواعد قبرص وعدن ، المدن المصرية وضربت مدينة بورسعيد . وقد تتضمن تلك السياسة أسلوب التهديدات العسكرية اضافة للضغط أو الحصار الاقتصادى كما فعلت مؤخراً الولايات المتحدة الامريكية ضد ليبيا بعد اتهامها بتدبير العمليات الارهابية التى حدثت ضد شركة العال الاسرائيلية فى مطارى روما وفينا .

الاستعمار الاقتصادى :-

المقصود بعبارة الاستقلال الاقتصادى المرجو لبلدان العالم الثالث ، والذى يعيه الاستعمار الاقتصادى المموه من قبل الدول المتقدمة صناعياً ، هو درجة الحرية فى رسم السياسة الاقتصادية

القومية ومستوى حق المشاركة فى اتخاذ القرارات السياسية الدولية الخاصة بهذه البلدان. وتظهر السيطرة الخارجية الاستعمارية المتحكمة ببلدان العالم الثالث فى أربع حالات اقتصادية أساسية(٤٨).

١ - المحافظة على هيمنة الشركات الاجنبية على انتاج البلدان الفقيرة وتجارتها، وتقوية هذه الهيمنة باستمرار:

ويلاحظ أن هذه الشركات تخرج عن قرارات السلطات القومية المحلية، عن طريق امكانيات المشاورة المتاحة لها بفعل أهميتها، ونتيجة لامكانية الانتقال الى بلدان أخرى عند الحاجة، فمثلاً عندما أممت الحكومة السورية الشركات الكبيرة، انتقلت رساميل شركة باتا الى بلدان أخرى. وتصبح بذلك أن خطورة السيطرة التى تمارسها هذه المشاريع متعددة الجنسية فى بلدان العالم الثالث تتمثل فى أن عائداتها تفيد الدول الصناعية أكثر من هذه البلدان.

٢ - طبيعة الانتاج المحلى الذى تتخصص فيه البلدان الفقيرة تقع تحت تأثير حاجات بلدان الاستعمار القديم، الى حد كبير، مما يضاعف من الخضوع الاقتصادى الذى تعانى منه بلدان العالم الثالث.

ومن أمثلة ذلك زراعة القطن فى مصر والسودان. ويضاف الى ذلك أن انتاج المواد الاولية المصدرة، كالبترول الخام من دول الخليج، دون أية عملية تحويل صناعية محلياً، يقوى التفسخ الاقتصادى اذ يمنع قيام سوق وطنية، كما يخضع أيضاً اقتصاد البلدان النامية لمفاسد الاسواق الخارجية وللمضاربة(٤٩).

٣ - التدنى المستمر الذى يصيب ميزان التبادل الاقتصادى هو خلل يحصل على حساب البلدان النامية. وهذا العطب فى الميزان التبادلى يبدو مرتبطاً أساسياً بنتائج السيطرة الاقتصادية التى تمارسها البلدان المصنعة على بلدان العالم الثالث. فالبلدان المصنعة تستطيع، بالفعل أن تخلق تنافساً على الاسواق بين البلدان النامية، فى حين أن هذه الاخيرة لا تقدر على خلق النسبة ذاتها من التنافس بين البلدان المصنعة.

٤ - المعنى الاقتصادى الذى تنطوى عليه المساعدات الممنوحة للبلدان الفقيرة من قبل الدول المتقدمة بهدف التوظيف الاستشارى لا يتضمن بالتالى صفة المساعدة النزيهة المتجردة لان غالبية المساعدات الممنوحة حالياً لبلدان العالم الثالث هى مساعدات مشروطة لمصلحة الدول المصنعة، كما أنها قد تحدث تأثيراً مناقضاً تماماً لمبدأ المساعدة ذاته: مساندة الحكومات المعطية سياسياً واقتصادياً، تسهيل عملية تحويل العملة الصعبة للدول المصنعة، وأحياناً تكليف أشخاص من ذوى الكفاءات غير الاكيدة بمسئوليات استراتيجية. ولا شك أن لكل ذلك آثاراً سلبية على بلدان العالم الثالث، كما هو الحال أيضاً بالنسبة لآثار الاستعمار الثقافى والفكرى الذى هو أيضاً من أخطر أشكال الاستعمار الحديث.

الاستعمار الثقافى والفكرى :-

هذا الشكل من الاستعمار الحديث يتخفى وراء أعمال المحبة ، والبذل فى سبيل البشرية والاخوة الثورية التى تدعى أنها تساعد فى التحرر من الاستعمار الجديد ذى الوجه الاقتصادى ، بينما تسعى فى واقع الامر لجعل التبعية والعبودية مؤبدة على بلدان العالمالثالث لأنها تعيق القدرات الخلاقة الكامنة فى هذه المجتمعات المتطلعة الى التطور . ويتصف هذا النوع الجديد من الاستعمار حالياً بثلاثة مظاهر أساسية (٥٠) :

١ – الامبريالية العقائدية (أو الايديولوجية) تجعل من نفسها مركزاً تحررياً بالنسبة الى الإمم التى يمكن ادخالها فى امبراطوريتها العقائدية . وهذا الاسلوب تتبعه الدول الغربية وغير الدول الغربية ، فى عالمنا المعاصر . فالبلدان المصنعة بعد أن ظنت نفسها قد ملكت الحقيقة الرأسمالية ، ثم النتائج العلمية لأنماط النمو الاجتماعية ، بدأت تبذل جهودها لتصدير التجربة التى اتبعتها من خلال مراحل نموها . ولكن هذه العقيدة ، سواءا جاءت من الشرق أو من الغرب ، ترفض كل محاولة تجديد مبتكرة ، معتبرة أياها غير مجدية . فأنصار العقيدة الليبرالية يرون فى مختلف اشتراكات العالم الثالث تنازلات تراعى الحساسيات القومية ، وتنطوى هكذا على تضحيات كبيرة . أما الماركسيون فينعون على هذه المحاولات كونها مناورات تهدف الى تمويه الاستعمار الجديد ، متيحة للرجعية أن تبعد الحل الحقيقى الاوحد ، أى الحل الماركسى ، ولهذا السبب يضطر المفكرون والسياسيون فى العالم الثالث الى اتباع أحد العقائد الجاهزة ، النابعة من خارج بلدانهم ، والتى تحول دون الابتكار القومى الحقيقى الذى من شأنه أن يحيط ، أحاطة أفضل ، بالحاجات المحلية .

٢ – النظام التربوى : يتجلى الاستعمار الجديد أيضاً فى كون الكثير من أنظمة التعليم السائدة فى بلدان العالم الثالث غير ملائمة . فسواء كان النظام التربوى موروثاً عن الانظمة التربوية الاجنبية ، أو حصيلة ابتكار حديث ، فهو فى غالبية بلدان العالم الثالث يعانى من ثلاثة مشاكل أولها التركيز فى التعليم العالى على تخريج اختصاصيين من ذوى المستويات الرفيعة يكونون ثروة جديدة من المهارات التى يسرقها العلم المتقدم تحت ستار هجرة الادمغة . وثانيها أن العلاج بواسطة التركيز على المعاهد التقنية فقط يؤدى أيضاً الى أن هذه اليد المتخصصة تجد ، كأفضل فرصة لها فى الظروف الحالية ، أن تشتغل لدى الشركات الاجنبية المزروعة فى البلاد مما يبعدها عن التفكير فى سياسة وطنها الاقتصادية كما يفقدها الحركة والمعارضة بهذا النظام بصورة فعالة . وثالثها أن عمليات تهيئة فرص العمل التى أصبحت معتمدة من أجل توجيه اصلاحات مناهج التعليم فى العديد من بلدان العالم الثال ، تستند غالباً الى الشواغر المتوقعة انطلاقاً من الوضع القائم حالياً بدلاً عن تبديل البنيات الذى من شأنه أن يخلق فرص عمل جديدة .

٣ – التعسف النفسى أو السيطرة السكولوجية : أدق شكل من أشكال الاستعمار الجديد هو الذى يتبدى بصورة نوع من الاعمال الانسانية – المريحة – ذات المضار النفسية الواضحة .

فتصرف بعض المعاونين الثقافيين غالباً ما يكون أكثر ضرراً بالنسبة الى مصالح البلاد من تصرفات المستغلين الاستعماريين القدماء ، لأنه توجيهي . فبينما يقوم عدد من المعاونين الثقافيين الوافدين ، أو الموفودين ، الى العالم الثالث ، بالتركيز على انتقاد مختلف أشكال التعسف والاخطاء والفضائح التي يرتطمون بها فى هذه البلدان ، فأنهم انما يتنصلون فى الواقع من تحمل أية مسئولية . وعليه فأنهم ينسفون الامل ، ويصبحون فى النهاية أخطر أعوان الاستعمار الجديد ، اذ أنهم يخلقون انطباعاً لدى أصحاب النوايا الحسنة أنفسهم بأن التطور مهمة مستحيلة وأنه حتى بالنسبة الى الذين لا يتبعون مصلحتهم الانسانسة ، يظل تقدم العالم الثالث حلماً غير ممكن التحقيق ، وتترتب على ذلك آثار سلبية على بلدان العالم الثالث حيث تفشل هذه البلدان فى الاعتماد على نفسها فتقع بذلك فريسة سهلة للسيطرة الايديولوجية الاجنبية .

الخاتمـــة :-

ظاهرة الاستعمار ترجع فى أصولها لمفهوم العبودية التى مارسها البشر على بعضهم البعض منذ العصور التاريخية القديمة وخاصة فى أوربا حيث تكونت الامبراطوريات الاولى (اليونانية والرومانية) فكانت النواة لامبراطوريات أوربا الاستعمارية فى العصور الحديث . وقد جاء الاسلام محرراً للانسان من جميع أنواع العبودية ومن نظام الرق الذى ساد فى عالم الجاهلية قبل مجئ الاسلام ، كما أن الامبراطورية الاسلامية التى غطت العالم من شرقه الى غربه فى فترة ما سمى بالعصور الوسطى المظلمة فى أوربا ، كانت امبراطورية تحريرية بالنسبة للبلدان التى وقعت تحت سيطرة الامبراطوريات القديمة .

وعليه فأن الظاهرة الاستعمارية تعنى نظرياً وفى حقيقة الامر بالسيطرة والهيمنة الكاملة من قبل قوم متفوقين على قوم أضعف منهم ، وهى بالتالى تعبير عن مبدأ سيطرة القوى على الضعيف ، وهو مبدأ يتعارض مع مفاهيم المساواة والاخوة الانسانية التى جاءت بها الرسالات السماوية ، كما يتعارض مع مفهوم الانسان كمخلوق متحضر ميزه الله تعالى عن بقية المخلوقات بصفة العقل وذلك لان الاستعمار يقوم أساساً على استخدام القوة والقهر . وهذا ما فعلته أوربا فى مرحلة الكشوف والثورة الصناعية عندما اعطت لنفسها الحق فى السيطرة على الشعوب الاخرى فى العالم الثالث وشرعت فعلياً فى تطبيق سياستها الاستعمارية حتى قبل مؤتمر برلين (١٨٨٥) الذى أعطى الضوء الاخضر للتنافس الاستعمارى الشرس الذى عرف باسم التكالب على افريقيا . وأرادت أوربا بهذه السياسة الاستعمارية أن تسعى لاربنة العالم لتحقيق مصالحها وأهدافها على حساب شعوب العالم الثالث .

وبذلك نشأ الاستعمار التقليدى بأهداف وأغراض متعددة لفرض السيطرة الكاملة المباشرة فى شتى المجالات – العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية – على شعوب العالم الثالث مما أفقدها استقلالها وسيادتها .

وكانت لهذا الاستعمار التقليدى (أى القديم) أهداف قريبة المدى تمثلت فى الجوانب الاستراتيجية والاقتصادية بينما ركزت أهدافه ذات المدى البعيد على الجانب الحضارى وذلك بغرض طمس

وتشوية المعالم الحضارية للبلدات المستعمرة . واستخدم الاستعمار التقليدى فى كل ذلك أساليب متعددة ومختلفة للوصول الى تحقيق أهدافه القريبة والبعيدة ، ومن هذه الاساليب :

السيطرة العسكرية والقمع ، استغلال ونهب الثروات الطبيعية ، تجزئة وتفتيت الوحدة الداخلية من خلال سياسة فرق تسد والتلاعب بالحدود ، تشجيع التبشير الغربى والاستيطان الاجنبى ، فرض لغة المستعمر وثقافته على البلدان المستعمرة .

ولهذا كان من الطبيعى حدوث ردة فعل ضد وجود وسياسات هذا الاستعمارى التقليدى من قبل شعوب البلدان المستعمرة . فترتب على ذلك ظهور الحركات الوطنية التحررية فى مختلف اجزاء العالم الثالث . واستخدمت هذه الحركات ، بعد فشل المقاومة المسلحة : اساليب المستعمر نفسه بهدف التخلص من سيطرته ومن أجل الوصول الى الاستقلال . والحقيقة أن حركات التحرير قد استخدمت شتى الوسائل من سياسية ودبلوماسية (لكسب الرأى العام العالمى فى المنظمات الدولية) وحتى عسكرية (خاصة فى الحالات التى اقتضى فيها الامر اللجوء للعنف) لبلوغ ذلك الهدف الاساسى وهو الاستقلال . ونجحت هذا الحركات التحررية فى النهاية فى اجبار الاستعمار التقليدى على التراجع والزوال مما جعل بلدان العالم الثالث تحصل على استقلالها وتكون بذلك قد مرت كلها بنفس الظروف من حيث خضوعها للاستعمار التقليدى ، وقيامها بالحركات التحررية ضده ، ثم مواجهتها لنفس المشاكل بعد حصولها على الاستقلال .

ولكن نهاية الاستعمار التقليدى لم تكن فى واقع الامر نهاية لظاهرة الاستعمار لانه وبعد ظهور القطبية الثنائية والدولتين العملاقتين (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى) بعد الحرب العالمية الثانية ، حيث احتدم بينهما التنافس العقائدى وتكونت احلافها العسكرية ، استمر الاستعمار فى شكله الخفى والغير مباشر والذى عرف بالاستعمار الحديث (أو الجديد) ، ولكنه سار على نفس أهداف الاستعمار التقليدى حيث يركز على فرض التبعية على دول العالم الثالث فى شتى المجالات ، كما يسعى لتقسيم العالم فى شكل مناطق نفوذ تابعة للكتلتين الغربية الرأسمالية والشرقية الشيوعية . ومن بين اساليب الاستعمار الحديث تشجيع الحروب الاقليمية واقامة القواعد العسكرية وفرض السيطرة الاقتصادية (بالاتفاقيات غير المتكافئة والمساعدات المشروطة مثلاً) وكذلك فرض السيطرة الثقافية (أو الايديولوجية)

وقد التقت الامبريالية العالمية الحديثة مع بقايا الاستعمار الاستيطانى فى فلسطين وجنوب أفريقيا . وتشكل فى النهاية جميع النقاط السابقة الذكر امكانية صياغة نظرية عامة حول ظاهرة الاستعمار . وتبقى فى النهاية أيضاً ضرورة قيام دول العالم الثالث بواجبها فى مواجهة قوى الاستعمار الحديث ، وذلك من خلال تقوية الوحدات الاقليمية ومن عبرها تقوية حركة عدم الانحياز لكى تصبح منظمة دولية قوية فعالة حيث تسعى ، كما فعلت منذ تأسيسها عام ١٩٦١ ، لرفض الاستعمار الحديث والقضاء عليه من أجل قيام عالم تسوده مثاليات السلام والامن والتعاون وحقوق الانسان التى نصت عليها المواثيق الدولية .

الهوامش :-

(١) أنظر ندوة « دول العالم الثالث » التى عقدت بجامعة الامارات العربية المتحدة وشارك فيها الكاتب ، نشرت فى مجلة العلوم الاجتماعية ، العدد الثانى ، السنة السابعة ، يوليو ١٩٧٩ ص ٩١ .

تجدر الاشارة الى أن الفريد سوفى هو أول من استخدم تعبير « العالم الثالث » على غرار تعبير « الطبقة الثالثة » وهى من جميع فئات الشعب ما عدا النبلاء ورجال الدين .

أنظر جان لاكوبير وجان يومية ، الدول النامية فى الميزان ، ترجمة فوزى عبد الحميد ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، مجموعة اخترنا لك ، بدون تاريخ ، ص ٩ وما بعدها .

(٢) أحمد عطية الله ، القاموس السياسى ، القاهرة ، دار النهضة العربية ١٩٦٨ ، الطبعة الثالثة ، ص ٥٨ -٥٩ .

(٣) انظر د . جمال حمدان ، استراتيجية الاستعمار والتحرير ، بيروت ، دار الشرق ، ١٩٨٣ ، ص ١٣ - ٢٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(٥)
R. J. Harrison Church, Modern Colonisation, London, 1951, P. 18-22 & 106

نقلاً عن المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

(٦) أنظر د . جمال حمدان ، سبق ذكره ، ص ٥٤ -٥٦ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٥٨ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٦٠ -٦٣ .

(٩) أنظر المصدر السابق ، ص ١٠٨ - ١٢٠ .

(١٠) حول التقسيم الاستعمارى الافريقى أنظر مثلاً :

Roland Oliver & Anthony Atmore,
L'Afrique depuis 1800, Paris, P.U.F., 1970. PP. 114-142.

(١١) أنظر المصدر السابق ، P 132 ، على محمد بركات ، السياسة البريطانية واسترداد السودان (١٨٨٩ - ١٨٩٩) ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ ، ص ١٨٧ - ٢١٣ .

(١٢)
Hemri Grimal, Histoire du Commonwealth Britannique, Paris, Que sais-je? (No. 334), P.U.F., 1965, P.6

وأنظر أيضاً

Andre' Bourde, L'frique Orientale, Paris, Que sais-je? (No. 1308), P.U.F., 1968. P. 37.

(١٣) أحمد سيكوتورى ، أفريقيا والثورة ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومى ، ص ٩٢ - ٩٣ .

(١٤) ندوة « العالم الثالث » ، سبق ذكرها ، ص ٩٢ - ٩٣ .

(١٥) أنظر عن هذه الثورات د . سليمان محمد الطماوى ، التطور السياسى للمجتمع العربى ، القاهرة ، دار الفكر العربى ٢٧ ، ١٩٦٦ ص ١٦٧ - ١٧٨ .

أنظر الحركات التحريرية فى دول المغرب العربى د . حسن سيد سليمان ، المغرب العربى - التطور السياسى والدستورى ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٨٢ ، ص ١١ - ٦٣ .

(١٦) أنظر المرجع السابق عن دول المغرب العربى .

(١٧) تجدر الاشارة هنا الى مؤتمر الدراسات الافريقية والاسيوية بجامعة الخرطوم فى الفترة من ٨ والى ١٥ يناير ١٩٨٥ وقدمت فيه أكثر من أربعين ورقة فى شتى جوانب الحركة الوطنية فى السودان .

(١٨) بالنسبة لدول الخليج أنظر : د . جمال زكريا قاسم ، الخليج العربى دراسة لتاريخه المعاصر (٤٥ – ١٩٧١) ، القاهرة معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٤ ، وكذلك د . محمد مرسي عبد الله ، دولة الامارات العربية المتحدة وجيرانها ، الكويت ، دار القلم ، ١٩٨١ .

(١٩) انظر : Roland Oliver & Antlony Atome, op. cit., P.234.

(٢٠) انظر المصدر السابق . ص 241 -245, 263 -270

(٢١) المصدر السابق . ص 245 -251 . انظر أيضاً عن تصفية الاستعمار فى أفريقيا :

Aguibou Y. Yansane'' (editor), Decolonizatiation & Dependency, London, Greenwood Press, 1980.

(٢٢) د. ذوقان قرقوط ، المشرق العربى فى مواجهة الاستعمار – قراءة فى تاريخ سوريا المعاصر – القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ ، ص ٤ .

(٢٣) أنظر مثلاً د. مدثر عبد الرحيم الطيب ، مشكلة جنوب السودان ، الخرطوم ، الدار السودانية ، ١٩٧٠ ، و

Mohamed Omer Beshir, The Southern Sudan-Background to conflict, Khartoum, K.U.P (Khartoum University Press, 1968.

(٢٤) د. ذوقان قرقوط ،سبق ذكره ، ص ٤ و ٦ .

(٢٥) د. حسن سيد سليمان ، المغرب العربى ، سبق ذكره ، ص ٤٩ .

(٢٦) المصدر السابق ، ص ٥٧ .

(٢٧) أنظر مثلاً د. عبد الوهاب الكيالى ، تاريخ فلسطين الحديث بروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط ٢ ، ١٩٧٣ ود. وليد قحاوى ، النكبه والبناء فى الوطن العربى ، بيروت دار العلم للملايين ، ط ٢ ، ١٩٦٢ .

(٢٨) منير ماشوش ، الصهيونية ، بيروت ، دار السيرة ، ١٩٧٩ ، ص ٣٠ .

(٢٩) د. حسن سيد سليمان ، «كيف نواجه النازية الصهيونية ؟» جريدة الاتحاد (أبو ظبى) . العدد الاسبوعى ، ٢٢ أبريل ١٩٨٢ .

(٣٠) أنظر منير ماشوش ، سبق ذكره ، ص ٧٩ – ٨٦ ود ، جمال حمدان ، سبق ذكره ، ص ١٣٦ – ١٤٠ .

(٣١) راجع مثلاً حبيب تهوحى ، العرب فى ظل الاحتلال الاسرائيلى منذ عام ١٩٤٨ ، بيروت ، مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية ، (٣٨) ، ١٩٧٢ .

(٣٢) د. جمال حمدان ، سبق ذكره ، ص ١٣٩ – ١٤١ .

لننظر أيضا شيريب سبيريد فيتش ، حكومة العالم الخفية ، ترجمة مأمون سعيد ، بيروت ، دار النفئس ، ط ١٨٠ ، ص ٧ – ٨ حيث جاء فى المقدمة أن المؤلف ينطلق من قناعة كاملة بوجود هيئة يهودية لها صفة عالية قدر عدد أفرادها فى أوائل القرن العشرين بثلاثمائة رجل يهودى يراسهم أحدهم ، نظامهم ديكتاتورى استبدادى ويعملون وفق خطة قديمة مرسومة للسيطرة على العالم ، فهى عبارة عن حكومة خفية تحكم الشعوب بواسطة عملائها .

(٣٣) Roland Oliver & Anthony Atmore, opcit, p 279-81 ;

(٣٤) أنظر روث فيرست ، أفريقيا الجنوبية الغربية – مستعمرة التفرقة العنصرية ، ترجمة عبد السلام شحاته ، القاهرة ، وزارة الثقافة دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، سلسلة من الفكر السياسى والاشتراكى ، بدون تاريخ ، ص ٥٨ – ٩٨ .

(٣٥) Roland Oliver & Anthony A bnore opcil PP. 282-283 .

(٣٦) روث فيرست ، سبق ذكره ، ص ٨ و ١٠ .

(٣٨) د. جمال حمدان ، سبق ذكره ، ص ١٨٠ – ١٨٤ .

(٣٨) المصدر السابق ، ص ٢٣٨ – ٢٣٩ .

(٣٩) المصدر السابق ، ص ٢٥٨ – ٢٥٩ .

(٤٠) أنظر هيلين كاربر دانكوس السياسه السوفياتية فى الشرق الاوسط (١٩٥٥ - ١٩٧٥) ، ترجمة عبد الله أسكندر ، بيروت ، دار الكلمة للنشر ، ١٩٨١ ص ١٧ وما بعدها .

(٤١) د . جمال حمدان ، سبق ذكره ، ص ٣١٥ - ٣١٦ .

(٤٢) المرجع السابق ، ص ٣١٦-٣١٧ .

(٤٣) أنظر حسين فهمى مصطفى ، التعايش السلمى ومصير البشرية ، القاهرة الدار القومية للطباعة والنشر ، سلسلة من الشرق والغرب ، بدون تاريخ

(٤٤) د . جمال حمدان ، سبق ذكره ، ص ٣٢١ - ٣٣٠

(٤٥) أحمد سيكوتورى ، سبق ذكره ، ص ٣٢٠ .

(٤٦) د . جمال حمدان ، سبق ذكره ، ص ٣٢١ .

(٤٧) ابراهيم الشريف ، ركائز الاستعمار فى العالم العربى القاهرة ، وكالة نوفوستى للانباء ، سلسلة قضايا سياسية ، ١٩٦٥ ص ٣٨ - ٤٠ .

(٤٨) أنظر د . عفيف دسقية ، تجربة العالم الثالث ، بيروت ، معهد الانباء العربى ، سلسلة الدراسات الاستراتيجية ، ط ٢ ، ١٩٨١ ، ص ٥٠ - ٥٧ .

(٤٩) أنظر عن الاستعمار والبترول فريد هوليداى ، النفط والتحرر الوطنى فى الخليج العربى وأيران ، ترجمة زاهر ماجد بيروت دار ابن خلدون للطباعة والنشر ، ١٩٧٥ ، ص ١٠ وما بعدها .

(٥٠) د . عفيف دمشقية ، سبق ذكره ، ٥٧ - ٦٣ .